أنيس صايغ عن أنيس صايغ: رحلة نصف قرن في العمل الفلسطيني والعربي (3)

حياتي المتشابكة الهوية انتصار على الاستعمار وأشعر أني أصفع سايكس وبيكو كل يوم صفعة جديدة

مدّعو الإنجيلية الأمريكية جهلة أوقعهم غباؤهم في فخ التآمر على العرب والمسلمين ولا يمثلون المسيحية

أنيس صايغ مفكر وكاتب فلسطيني معروف، تخرج من الجامعة الامريكية في بيروت وجامعة كامبريدج البريطانية، وعمل استاذا زائرا في الجامعة نفسها، وعميدا لمعهد الدراسات والبحوث العربية في القاهرة، وكان مدير مركز الابحاث الفلسطينية في بيروت، ورئيس تحرير مجلة «شؤون فلسطينية» و«اليوميات الفلسطينية»... وعمل في اكثر من موقع في الجامعة العربية، وقام بعدد من المبادرات الثقافية مثل اطلاق مشروع الموسوعة الفلسطينية.. واصدر اكثر من دراسة وكتاب منها «لبنان الطائفي»، و«نصف قرن من الاوهام»، و«بلدانية فلسطين المحتلة»، و«الهاشميون والثورة العربية»، و«الهاشميون وقضية فلسطين»، واخيرا مذكراته التي تنشر «القدس العربي» مقتطفات منها.

«القدس العربي»

بصمات دينية

لا بد لي من وقفة هنا قد لا تكون موجزة قبل إنهاء الحديث عن البصمات الدينية عموماً والمسيحية خصوصاً في تربية أبناء العائلة البيتية. المذهب المسيحي للعائلة، كما سبق وبيّنت مراراً، هو المذهب الإنجيلي المعروف بالبروتستانتي (وبالتحديد، على المفهوم المشيخي، وهو أحد أكثر مفاهيم المذهب الإنجيلي انفتاحاً وديموقراطية وابتعاداً عن الطقوس والشكليات. كما أنه أكثرها رفضاً لوجود رتب وتفاوت في المراكز بين القسس، فلا يوجد من هو أعلى من القسيس أو أدنى في المقام والصلاحيات. وكل القسس متساوون في كل شيء حتى في الرواتب. ولا يجوز لقسيس أن يتقاضى أتعاباً خاصة لأدائه مراسم معينة كالزواج والعمادة والدفن). وإذا كان الإنجيليون في العالم أكثر من عُشر السكان، وإذا كانوا أكثر من ثلث المسيحيين عموماً، فإنهم أقلية بسيطة جداً بين العرب عموماً (أقل كثيراً من واحد في المئة) وبين العرب المسيحيين خصوصاً (أقل من خمسة في المئة). إذ أن المذهبين الأرثوذكسي والكاثوليكي، بفروع كل منهما المختلفة، يحتلان الغالبية الساحقة من الطائفة العربية المسيحية. ومع هذا، وفي المقابل، ولأسباب متعددة معظمها تاريخي وظرفي، تحتل الأقلية الإنجيلية مركزاً مرموقاً جداً على المستويات الثقافية والتربوية والصحية والاجتماعية والمهنية والوطنية، في الأقطار السبعة ذات الوجود المسيحي المحلي (لبنان وسورية وفلسطين والأردن والعراق ومصر والسودان) بشكل يلفت النظر، وذلك منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم.

أقول هذا الكلام لا للمباهاة وإذكاء لروح التنافس (الرياضي أو غير الرياضي) بين المذاهب المسيحية في بلادنا، فذلك آخر ما يهمني، إنما أريد أن أسجلّ واقعاً أدى، لسوء الحظ، إلى قيام حساسيات سلبية بين الإنجيليين وغير الإنجيليين، بين الرعايا والمؤمنين أكثر مما هي بين الكنائس ورجال الدين أنفسهم. وأنا أفسّر هذه الحساسيات بما يلي: اعتدنا في علم الاجتماع أن نتحدث عن مركّبات النقص (وما تؤدي إليه من عقد ومشاكل) عند الأقليات ضد الأغلبية، سواء على المستوى الديني أو العرقي أو اللغوي أو الحضاري أو حتى الثقافي. وهو أمر مألوف ومفهوم. إنه ينشأ عن تساؤل ابن الأقلية عن أحقية ابن الأغلبية بالاستيلاء أو بالسيطرة على غالبية المكاسب والفرص في المجتمع. لكن علم الاجتماع قلما يتحدث عن عقدة نفسية أخرى، مغايرة تماماً، تعاني منها الأغلبيات الدينية أو غيرها تجاه أقليات معينة استطاعت بظروف خاصة أن تصل إلى ما وصلت إليه الأغلبيات ثم أن تقفز فوقها وتتفوق عليها في بعض المجالات. في حال مثل هذا يتحول الأمر من شكوى الأقليات من حرمان الأغلبية لها إلى غضب الأغلبيات على تلك الأقليات بسبب نجاحها في ما لم تنجح هي به. وكثيراً ما يتحول هذا الغضب إلى جو من الشكوك والاتهامات والإدانات، وأحياناً يشحن هذا الجو بالشائعات وبالسخرية، في محاولة للنيل من نجاح الأقلية واعتراف الناس بفضلها.

في هذا الإطار يمكن أن نقرأ (وربما أن نفهم) سر ضيق صدور الكثيرين من المسيحيين غير الإنجيليين بإخوانهم الإنجيليين قليلي العدد كبيري الأثر. ولما لا يجد هؤلاء عذراً لأنفسهم في التهجم أو حتى التهكم يطلقون الاتهامات جزافاً. وسأختار ثلاثاً من هذه الأفكار الشائعة في بعض القطاعات المسيحية في عالمنا العربي ضد الإنجيليين يسمّون الإنجيليين بطائفة (الشلن)، أي أنهم اعتنقوا مذهبهم الجديد نسبياً لقاء مساعدات وإغراءات مالية وليس عن اقتناع وإيمان. وهو أمر يناقض أصل التسمية تماماً. فلأن الإنجيليين عموماً ذوو مراكز مالية ومهنية جيدة ولأن طائفتهم صغيرة ولأنهم تربوا على مبدأ مساعدة بعضهم بعضاً تميزوا عن غيرهم، عموماً، بالسخاء في التبرع للكنيسة. وبينما كان المواطن العادي يقدم قرشاً عند تقديم العطايا في نهاية خدمة العبادة كان الإنجيلي يقدم شلناً، خاصة أن التبرعات تذهب إلى الكنيسة وليس إلى الكاهن كما هو حال المذاهب الأخرى. وهكذا تحولّ فعل الكرم والإحسان إلى مجال للسخرية.

ومن جهة ثانية يطلقون وصف العشاء البروتستانتي على العشاء البسيط والمتواضع، ويتحول هذا القول إلى سخرية. والواقع أن الإنجيليين العرب، بحكم تأثرهم بالأوروبيين اجتماعياً، اعتادوا أن يكون طعام العشاء خفيفاً لأن ذلك أفضل للصحة، خاصة وأن لديهم عادة وجبة رابعة هي وجبة الشاي في المساء التي يجيء ذكرها في هذا الفصل كواحدة من ذكريات الطفولة.

أما الاتهام الأعنف والأكثر ابتعاداً عن الحقيقة فهو أن الكنائس والمدارس الإنجيلية تعفي الطلبة الإنجيليين من تسديد أقساطهم المدرسية التي تفرضها على غير الإنجيليين من مسيحيين ومسلمين كرشوة وأسلوب لجذب الآخرين إلى المذهب الإنجيلي. وسيجد القارئ في أماكن متعددة من كتابي ما يناقض هذا الزعم. ربما كان القس عبدالله صايغ وزوجته أحق من أي إنسان آخر بتعليم أبنائهما السبعة مجاناً في المدارس والكليات والجامعات الإنجيلية. ومع هذا لم يحظ أي من الأبناء بإعفاءات خاصة في أي معهد من معاهد العلم الإنجيلية التي انتسبوا إليها، في صفد والقدس وصيدا وبيروت باعتبار أنهم إنجيليون.

ولعل ما حصل في العقود الأخيرة من قيام جماعات من مدّعي الإنجيلية من ملايين الأميركيين المهووسين والمنحرفين والجهلة والعنصريين الذين ألقاهم غباؤهم وتعصبهم في فخ التآمر على العالم عموماً وعلى العرب والمسلمين خصوصاً ممن يسمون بالبروتستانت أو المسيحيين الجدد وهي ظاهرة للفساد الأميركي في السياسة والخلق والفهم والتربية والكنيسة أعمى بصيرة عرب كثيرين وظنوا، خطأ، أن المذهب الإنجيلي الذي يؤمن به العرب الإنجيليون هو نفسه ذلك المذهب الذي ينطلق منه مجانين أميركا المحدثون. وهذا ظلم للحقيقة والواقع. إن أتباع ذلك المذهب الأميركي المسيحي ـ الصهيوني لا يمثلون المسيحية وجوهرها وفهمها للعدالة والمساواة والحرية والحقوق. إنهم دعاة مذهب جديد منحرف وغريب ومشوه من أساسه. إن من يتكلم باسم الإنجيلية من الفلسطينيين، مثلاً، هم العشرات من أولئك الذين بذلوا جهودهم وأموالهم، وبعضهم بذل حياته ودمه، من أجل عروبة فلسطين. إنهم قافلة طويلة من مناضلي الفكر والرأي ورموز العطاء الثقافي والاجتماعي والإعلامي. إنهم يتباهون أنهم عرب مسيحيون وليسوا مسيحيين عرباً.

وسأكتفي بتسمية بعض الراحلين منهم إميل حبيبي والفارس بولس وإميل اغابي وإيليا خوري وبولس شحادة وتوفيق صايغ وتوفيق كنعان وثيوفيل بوتاجي وحبيب خوري وحنا عصفور وحنا صلاح وحنا بولس وحنا ميخائيل وخليل طوطح وسامي هداوي وشبلي الجمل وعزت طنوس وفايز صايغ وفؤاد بهنان وفؤاد سابا وكريم خوري وكمال ناصر ومتيلدا ومغنم مغنم وموسى ناصر ونبيل خوري ونبيهة ناصر ويوسف صايغ.

إن العربي المسيحي الإنجيلي الذي يصرّ على تسمية كنيسته بالكنيسة الوطنية حريص على أن يظل منارة في عالمه العربي يؤدي واجباته الوطنية والقومية والثقافية بصمت وصلابة. وهو لا ينسى أن عرب المشرق في القرن التاسع عشر أطلقوا نعت كلمة بروتستانتية وصفاً للكلمة الصادقة والوعد الموثوق.

بين الكتب

أثر كبير ثالث انعكس في وعيي وفي لاوعيي في آن هو الجو العلمي والثقافي في المنزل. كان الكتاب زينة البيت وثروته الأساسية وملء الخزائن والرفوف. كان أثاث المنزل بسيطاً وقليلاً إلا من الكتب الكثيرة العدد والغالية الثمن. وقد اعتدنا أن يكون لكل فرد في الأسرة مكتبته الخاصة به، من الوالد إلى أصغر الأبناء. وأذكر أن مكتبة الوالد كانت تحفل بالموسوعات والمعاجم. وكانت مكتبات يوسف وفايز وتوفيق هي الأكثر كتباً. وأذكر أن مكتبتي فايز وتوفيق كانتا تضمان كتباً فنية فيها الكثير من اللوحات التي تظهر فيها نساء عاريات. وكنت ومنير نسترق النظر إليها [illegible] وحدنا في البيت.

وبالطبع كنا أصغر من أن نتذوق أو ندرك الناحية الجمالية الفنية في الموضوع. وكان توفيق الأحرص على كتبه. يغضب إذا رأى أحداً يقلّب أحدها. وكثيراً ما كان زوارنا في البيت من خارج طبريا وهم زوار الأشقاء الأربعة الأكبر، أو ضيوف الوالد يصرفون الساعات في المكتبة والاطلاع على بعض محتوياتها.

وحينما تركت طبريا 1948 كانت مكتبتي تضم عدة مئات من الكتب، نصفها تقريباً مما كان يُهدى إليّ في المناسبات من الوالدين والأشقاء ومن بعض أصدقاء العائلة. أحدهم، خليل الطبري، كان يحمل إليّ كتاباً أو أكثر كلما جاء للزيارة أو لتلبية دعوة غداء، وخاصة في شهر رمضان حينما كان ضيفنا الدائم على الغداء لأن أسرته تلتزم الصيام في الشهر الفضيل. لكن معظم الكتب التي أهداني إياها كانت أكبر من سني. وكنت أحتفظ بمجموعة كاملة من كتب كامل كيلاني الذي أعتبره رائد الكتابة للأطفال. واحتوت مكتبتي أيضاً كتباً للأطفال مشهورة عالمياً مثل رحلات جلفر وروبنسون كروزو والسندباد البحري. ومع الأيام استهواني نوعان من الكتب الرحلات والسِّير. أذكر من كتب الأربعينيات التي فضلّتها على غيرها أميركا الضاحكة لمصطفى أمين وخمسة في سيارة لسامي جريديني وآثار أقدام لإميل خوري وكان أعلى من مستواي الفكري وجولة حول العالم لحنا خباز. وكذلك كتب رحلات محمد ثابت الرحالة المصري. أما في كتب السيرة فكان أهمها كتب طه حسين وأحمد أمين وميخائيل نعيمة عن جبران والأمير عبدالله في كتابه مذكراتي. والطريف أن هذين النوعين من الأدب اللذين أغرمت بقراءتهما في الأربعينيات ما زالا هما الموضوعين المفضلين لدي حتى اليوم.

كانت مكتبتي تضم آلاف الأعداد من المجلات الفلسطينية واللبنانية والمصرية. وكنت أحرص على شرائها وأحرص على مطالعتها. وأعترف أن شطراً كبيراً من المعلومات التي كانت تتوافر لي وأنا بعد في سن مبكرة إنما أدين به إلى مطالعة هذه المجلات، السياسية والثقافية، ومعظمها مصور. والواقع أني كنت أقرأ المجلات قبل أن أتعلم القراءة. كنت أحفظ الصور عن ظهر قلب، صور الشخصيات والأماكن والمعارك وأعلام الدول وشعارات الأحزاب والمؤسسات.

واحتوت غرفة المكتبة الرئيسية على ثلاث أو أربع طاولات للمطالعة والكتابة. وكانت إحداها خاصة بالوالد. ولا يسمح لأي منا أن يستعملها ولا أن يقترب منها حين يكون جالساً للمطالعة أو الكتابة. وكنا لا نتكلم في الغرفة إلا بصوت خافت. وكانت الوالدة تمنعني ومنيراً من دخول المكتبة أيام السبت حينما يكون الوالد يحضّر عظته ليوم الأحد.

المائدة الصائغية

يلفت النظر في النهم الصائغي للعلم أمران تنوّع المعارف التي تتخصص بها أفراد الأسرة اللاهوت والطب والهندسة والسياسة والفلسفة والتاريخ والأدب والمكتبات والإدارة والاجتماع والعلاقات العامة، من جهة أولى، ومن جهة أخرى عدم فرض الآباء الموضوعات التي يتخصص بها الأبناء. ولا شك أن حرية الدارسين في اختيار سبيلهم العلمي أسهمت كثيراً في نجاح هؤلاء مثلما أسهم تنوع الموضوعات في غنى الحصيلة العامة لهذه الثروة المعرفية للأسرة. وينسب إلى المفكر اللبناني منح الصلح قوله إن جلسة الغداء في الأسرة تمتد إلى ما بعد العشاء لتنوع الموضوعات التي تثار على المائدة بناء على تعدد اختصاصات الجالسين حولها!

يقودني الحديث عن المائدة الصائغية التي لا تقارن بساطة محتوياتها وأطباقها الغذائية مع خصوبة أحاديث المشاركين بتناولها وطروحاتهم، إلى ذكر مختصر لأهمية آداب المائدة في الأسرة. هناك موعد محدد يلتزم الجميع به في الجلوس إلى المائدة. لا يعود الفضل في هذا التقليد إلى المستوى الحضاري والأسلوب الغربي للأسرة فقط بل هو نتيجة طبيعية لضرورة أداء صلاة الشكر لله قبل البدء بالأكل، الأمر الذي كان يلزم الجميع بالحضور والجلوس قبل أن يتلو الوالد أو الوالدة صلاته. وإذا كنت لا أمارس الصلاة فأنا أحتفظ بتقليد التقيد بمواعيد جلسات الطعام وكذلك بأمكنة جلوس المشاركين من ضيوف أو/ و أفراد الأسرة، إلى جانب الاهتمام شبه الأعمى بترتيب المائدة بأطباقها وأكوابها وأدواتها وفضيّاتها. [illegible]، إنما المهم أسلوب التقديم والأناقة في الترتيب والتعاون في تبادل الأصناف، إلى جانب جلوس سيدة البيت وإشرافها على المائدة وأحاديثها مع الجالسين إليها. وأعترف أني أفضل أن أجوع أنا الأكول إلى حد النهم على أن أدعى إلى مائدة تفيض بالأصناف الشهية وبالفوضى وبجهل آداب الجلوس والتناول وتبادل الأحاديث المناسبة. إن أداء سيدة البيت في غرفة الطعام أهم من أدائها في المطبخ! وأعترف أيضاً أن أكثر ما أخافني عند بتر أصابعي في حادث التفجير الذي تعرضت له 1972 أن أفقد السيطرة على ما تبقى من أصابع وأفقد بالتالي القدرة على استعمال الشوكة والسكين. لكن تصميمي على الاحتفاظ بوقار المائدة سهّل عليّ القيام بذلك ولو بسبع أصابع فقط. ولا يضيرني سماع التشنيعة بأني أستعمل الشوكة والسكين في أكل الفلافل!

علمتنا الوالدة منذ الطفولة أن نأكل ما يوضع أمامنا من طعام، وأن لا نطلب أكثر مما نستطيع أن نأكل. وكثيراً ما كان توفيق، صاحب المزاج الصعب في الأكل، يعاقب إذا لم ينه الطعام الذي طلبه بنفسه وكثيراً ما كان العقاب أن يبقى على المائدة ساعات وساعات ولا يترك مكانه إلا بعد أن يكمل ما هو أمامه. وكنت ومنيراً نشفق عليه أحياناً فنساعده في التهام الباقي وراء ظهر الوالدة.

> أكثر ما أخافني عند بتر أصابعي في حادث التفجير الذي تعرضت له 1972 أن أفقد السيطرة على ما تبقى من أصابع وأفقد بالتالي القدرة على استعمال الشوكة والسكين... لكن تصميمي على الاحتفاظ بوقار المائدة سهّل عليّ القيام بذلك ولو بسبع أصابع فقط... ولا يضيرني سماع التشنيعة بأني أستعمل الشوكة والسكين في أكل الفلافل!

ليست برجوازية

ربما يشتمّ القارئ في هذا الحديث عن إتيكيت الأكل ودقة المواعيد رائحة من البرجوازية. والواقع أن ذلك إساءة لفهم حقيقة الأمور. فالنظام والتنظيم وجدا لمصلحة العمل، أي عمل، بما فيه النضال والإبداع. ويخطئ من يظن أن المناضل والمبدع إنسانان بعيدان عن الروتينية ويجب أن يبقيا خارج الانضباط حتى ينطلقا بحريّة في أداء رسالتيهما النضالية أو الإبداعية. إنه كلام هراء. فالنظام سنّة الحياة. والانضباط هو القانون الطبيعي لسير الأمور. ومع هذا أسمح للآخرين أن يتهموني بالبرجوازية في هذا المضمار فقط، مع التأكد من أن تربيتنا كانت تربية بسيطة ومتواضعة. كان المنزل في أثاثه وأدواته في منتهى البساطة. وإذا لم تكن العائلة فقيرة، فإنها لم تكن غنية بأي معنى مادي أو مالي. كان المدخول في الخمسين سنة التي كرسها الوالد للدعوة لله أدنى بكثير من المتوسط وأضعف من أن يلبي حاجات عائلة محترمة من تسعة أفراد وكل أبنائها في مرحلة من مراحل الدراسة. ما أنقذ الوالد من الإفلاس قدرته والوالدة على العيش ببساطة والتقيدّ بسلّم أولويات. كان هذا هو الحل إلى أن أكمل الأخوة الكبار دراساتهم وأخذوا يتحسسون بواجبات كل منهم تجاه الآخر، على الأقل في تغطية نفقات التعليم بعد أن نزح الوالد إلى لبنان ولم يعد يحصل على مرتب، ناهيك بتكاليف تطبيب الوالدة في لبنان 1948ـ 1950 بعد أن لم يعد هناك ذلك المستشفى وأولئك الأطباء الذين كانوا يعالجونها في طبريا مجاناً. كما يجدر بي أن أذكر أن كلاً من فايز وتوفيق قطعا دراستيهما الجامعية في النصف الأول من الأربعينيات للعمل سنة أو سنتين لتأمين أقساط الجامعة في العام الدراسي التالي، إذ عمل فايز مديراً لدائرة التموين في الناصرة وطبريا، وعمل توفيق معلماً للغة العربية في القدس والبصة وطبريا، بعض الوقت ريثما أمّن كل منهما جزءاً من المصاريف المطلوبة، حتى لا يرهقا الوالد أكثر مما كان مرهقاً، وكانا يعلمان أنه لن يطلب مساعدة من أي مؤسسة كنسية يعمل بها. لقد اعتاد أن يعطي ويعمل مجاناً ولم يعتد أن يطلب مساعدة، مهما كانت حاجته أو حاجة أسرته إليها، كما كانت الوالدة تقول لنا. أما بعد النكبة فقد أسهم كل من يوسف وتوفيق، ثم منير بعد تخرّجه طبيباً 1954، في نفقات البيت عموماً وفي تأمين أقساطي المدرسية 1948ـ 1953 . وحينما سافرت إلى بريطانيا عام 1959 دون أن أسدد باقي القروض التي كنت قد تلقيتها من صندوق الدعم في الجامعة الأميركية، قام منير، في غيابي ودون علمي، بتسديدها كاملة مع فوائدها. ولم أعرف ذلك فيما بعد إلا بالصدفة.

آخر العهد

في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) 1947 أقرّت الأمم المتحدة مشروع تقسيم فلسطين إلى دولتين، عربية ويهودية. وأعلن عرب فلسطين إضرابهم العام. وأغلقت المدارس كلها. ونقلني الباص إلى طبريا حيث أقمت مع الأسرة إلى حين رتّب يوسف لي أمر الالتحاق بمدرسة الفنون في صيدا حيث سبق له وللوالد والوالدة أن درسوا من قبل.

وصل يوسف صباح يوم الرابع من شباط (فبراير) 1948 لأخذي إلى المدرسة. وكانت الوالدة قد تعرضت لنوبة قلبية قضت بنقلها إلى المستشفى قبل ساعات. وفي هذا الجو الحزين غادرت طبريا. وكانت المرة الأخيرة التي أراها بدون مجهر من بعيد. كان نسيمها المنعش في الصباح يمسح خديّ والسيارة تقطع شوارعها والناس بعد في بيوتهم يستعدون لاستقبال يوم جديد. اختلطت دموع الخوف على الوالدة مع دموع الحزن لفراق المدينة. وإذا كنت قد التقيت الوالدة بعد عشرة أسابيع في بيروت التي أصبحت مأوى للأسرة بديلاً غير مواز لطبريا فإني لم ألتقِ طبريا حتى اليوم، إلا عبر نظرات خاطفة من بعيد من فوق تلال أم قيس في شرق الأردن، التي كانت ذات يوم، في القرن الأول الميلادي، مقاطعة في إمارة طبريا.

هكذا تتشابك الكيانات القطرية التي رسّخ الاستعمار حدودها المصطنعة في اتفاقية سايكس ـ بيكو 1916 مع بعضها بعضاً، ويحمل الشعب الواحد السوري العربي حضارة وإرادة أربعة أنواع من البطاقات الرسمية. فهذا فلسطيني وذاك أردني. وهذا لبناني وذاك سوري. وهكذا انتقلت من مسقط الرأس في فلسطين إلى الإقامة المؤقتة لمدة سبع وخمسين سنة في لبنان، وامتد عملي إلى سورية حيث مسقط رأس الوالد، وتزوجت من أردنية. ولم أعد أسعد برؤية طبريا إلا من فوق بعض التلال. وكان ذلك كله دليلاً حسياً ومقنعاً لحقيقة الأمة الواحدة الموزعة على شعوب متآخية، وحقيقة الوطن الواحد الممزق في كيانات متجاورة. وبالتالي فإن سيرتي هي بحد ذاتها انتصار على المؤامرة الاستعمارية. وأشعر وأنا أعتز بتشابك انتماءاتي في إطار سوري عربي أني أصفع السير مارك سايكس والمسيو جورج بيكو كل يوم صفعة جديدة. أصفعهما بالممارسة الحياتية دون خطابة ولا ضجة ولا بهورة.

من هنا فأنا فلسطيني ولبناني وسوري، إلى حد ما وليس بالمطلق. أنا عربي موزع بين هذه الأقطار التي يتساوى عندي الولاء لها والانتماء إليها. إني أحمل قلباً إنسانياً يضخّ دمه العربي في شرايين بعضها فلسطيني وبعضها لبناني وبعضها سوري شريان النضال الفلسطيني من أجل التحرير الكامل وإسقاط الاغتصاب. وشريان الثقافة والعصرنة اللبناني المنفتح على الحضارة العالمية. وشريان الإباء والشموخ والاعتزاز السوري التواق إلى الوحدة والانطلاق. أنا إذن فلسطيني، وأنا لبناني، وأنا سوري، لكني عربي أولاً وإنساني في نهاية الأمر، عروبة تخدم فلسطين ولبنان وسورية مثلما تستمد منها كلها وجودها وقوتها، وتقوم على القيم والمثل الإنسانية العامة، ولا تتعارض هذه العروبة والإنسانية مع نقطة الارتكاز السورية التي تتفرع بين فلسطينية ولبنانية. فسورية، كما كتب فيليب حتي، هي أساس الحضارة في العالم. إن لكل إنسان في العالم وطنين يدين لهما بالولاء مسقط رأسه وسورية.

أذكر هنا أني حصلت على هوية فلسطينية لأول مرة في أوائل عام 1948 لأتمكن من عبور الحدود إلى لبنان. واسترجعت جنسيتي اللبنانية، مع معظم أفراد الأسرة، في الثاني من حزيران (يونيو) 1958كما استرجعت الجنسية السورية في ربيع عام 1973. إلا أن ولائي العربي أهم من هذه البطاقات الثلاث! وأود أن أذكر هنا أن يوم استرجاعي الهوية اللبنانية كان في الواقع يوم تشييع جنازة المطران الماروني مبارك الذي شذ عن إجماع الشعب اللبناني ودعا إلى إقامة كيان مسيحي في لبنان متعاون مع الكيان الصهيوني في فلسطين. وهذا ما يذكّرنا بأن الشاعر الماجن عمر بن أبي ربيعة ولد يوم وفاة الخليفة التقيّ عمر بن الخطاب.

ولعلي أحظى قبل أن أموت بتلك الهوية الواحدة التي تكملّ هوياتي القطرية المؤقتة الثلاث وتتوجها!

أما طبريا فتبقى سيدة المدائن وعميدة الأمصار. فيها كانت الولادة والنشأة وأيام الطفولة والصبا. ومنها كان الانطلاق إلى العالم الواسع. هي الأساس والقاعدة. وهي مآل الأحلام والتطلعات. هي الأعز في القلب والأقوى في الوجدان. وهي الخاتمة الطبيعية لطريق الحياة الوعرة نحو الراحة النفسية وربما الراحة الجسدية الأبدية أيضاً. لم أتخلَّ عنها طوعاً ولم استبدل بها بيروت إلا مرغماً. وبيروت هي المحطة النهائية لي قبل العودة إلى طبريا، سواء تحققت هذه العودة فعلاً أو بقيت حلماً في الخيال. وباستثناءات قصيرة نسبياً فرضتها سنوات الدراسة في كمبردج والعمل في تونس والقاهرة تمتد إقامتي في بيروت، واستقراري المؤقت، مدة سبعة وخمسين عاماً. وإذا حذفت الاستثناءات شارفت المرحلة البيروتية على خمسين سنة. ومع هذا فأنا طبراني لا غشّ فيه!

منزلنا في فردوس اسمه طبريا

كان منزلنا يقع على الطريق المؤدي من وسط طبريا إلى المناطق الشمالية نحو صفد بمحاذاة الشاطئ الغربي للبحيرة. ولم يكن يفصل بين حدائق المنزل وساحاته وأراضيه الواسعة التي لم تطأ قدماي بعضها وبين البحيرة غير شاطئ ضيق قام عليه منتجع الليدو وبجواره مقهى أبو دياب ومنزله الصغير ولكل من المنتجع والمقهى آثار في الذاكرة.

أسس المنتجع رجل أعمال ألماني اسمه كروسمان. وبنى فيه مبنى واسعاً للحفلات وقاعات الموسيقى والرقص، وإلى جانبه مقهى كبير وسط مجموعة من الحدائق ذات الأزهار والأشجار النادرة. وكان يشرف على هذه الحدائق عدد قليل من اللبنانيين وكان بعضهم يتردد على حدائق منزلنا للعمل فيها حسب رغبات الوالدة. وكنا نعجب بهؤلاء الرجال، يلبسون لباس المشايخ الدروز الذي اعتدت على رؤيته في لبنان بعد الهجرة 1948. وكانوا يتشابهون في اللطف والكياسة وحلاوة اللسان والمهارة في العمل.

كان المنتجع للنخبة فقط من عرب طبريا وبريطانييها وزوار المدينة وحماماتها، وأقصد بها النخبة الاجتماعية التي تسعى وراء الرقص وسماع الموسيقى الغربية والكلاسيكية وشاربي الشاي في الرابعة أو الخامسة بعد الظهر وهواة السهر في الليل. وكنا نسمع أصوات الموسيقى والغناء حتى منتصف الليل من غرف النوم في المنزل إذ لم يكن يفصل بيننا إلا طريق السيارات. لكن المنتجع لم يكن مفتوحاً لي ولا لشقيقي منير، إذ كنا صغاراً. أما الأخوة الكبار، من يوسف إلى توفيق، فكانوا يرتادون المقهى باستمرار. ولمدة سنة (1940 ـ1941) أصبح يوسف مديراً لفندق طبريا، وهو توأم المنتجع الليدو وصاحبهما واحد هو كروسمان، الذي مات في الثلاثينيات وخلّف الفندق والمنتجع لأبنائه. وكان أحد أبنائه نازياً متعصباً وضع على باب المنتجع لافتة كبيرة بالعربية والإنجليزية والعبرية تقول صراحة ممنوع دخول اليهود والكلاب. فانتقم اليهود من الرجل وأوغروا صدر الإنجليز عليه بعد إعلان الحرب 1939 فاعتقل أبناء كروسمان كلهم ولم يبق إلا الوالدة العجوز. وكانت إدارية ممتازة أشرفت على العمل وأدارته بنجاح ورفضت أن ترفع اللافتة. وكانت السيدة صديقة لوالدتي وتزورها يومياً تقريباً. وبعد هجرة 1948 نزحت إلى لبنان ونزلت في فندق صغير في حي الزيتونة قرب فندق نورماندي. وأرسلتني والدتي عدة مرات لآتي بها إلى الشقة التي أقمنا بها في عين المريسة. ثم غابت أخبارها بعد وفاة الوالدة وأظن أنها عادت إلى ألمانيا. أما أبناؤها فقد ظلوا رهن الاعتقال حتى إعلان إنهاء الحرب 1945. ولا أذكر ماذا حل بهم إلا أني أعرف أن أحدهم انتحر بأن أطلق الرصاص على نفسه ولذا لبست والدته السواد باقي حياتها.

فصل بين منزلنا وبين فندق طبريا (عرفه الناس باسم فندق كروسمان، وكان أكبر فنادق شمال فلسطين قاطبة وأفخمها حسب مقاييس ذلك الزمان) ثلاث بنايات ضخمة نسبياً دير للراهبات والمستشفى الاسكتلندي من جهة، والكنيسة الإنجيلية من جهة أخرى. أما الدير فكان لراهبات لاتينيات أو كاثوليكيات، لا يظهرن ولا يخرجن من الدير، ولا نراهن إلا حينما ينزلن إلى الحديقة يعتنين بالزهور والخضار. ولا أعتقد أن أحداً من أهلي تبادل الحديث أو حتى التحية مع أي منهن في مدى عشرين سنة تقريباً! وكان الدير، المرتفع قليلاً فوق تلة، يطل جزئياً على منزلنا. وكان المستشفى الاسكتلندي إلى جانبه الآخر. وهو المكان الذي ارتبطت عائلتنا به ارتباطاً وثيقاً. فهو يتبع الإرسالية الإنجيلية الإسكتلندية المشيخية التي يتبعها والدي وكنيسته. وكان والدي يصلّي يومياً في العاشرة في مصلى المستشفى لمن رغب من الموجودين من مرضى وعواد وأطباء وممرضين وتقنيين. وكان معظم المترددين على المستشفى، وبعضهم لا يرى مانعاً من حضور الصلاة التي يقيمها والدي لمدة نصف ساعة، من المسلمين، أما المسيحيون فكان عددهم في طبريا قليلاً، بنسبة عشرة في المئة أو أقل. ومعظمهم من المذاهب الأخرى غير الإنجيلية من الكاثوليك والأرثوذكس. ولذلك كانت عظات الوالد خلقية وتوجيهية أكثر منها دينية بالمعنى التبشيري الحرفي.

كانت أسرة المستشفى أقرب الناس إلى حياتنا. أذكر منهم طبيباً اسكتلندياً اسمه طورنس ابن مؤسس المستشفى في مطلع القرن ويهودياً متنصراً من تشكوسلوفاكيا اسمه زاكي ولعله ساكي محرّفاً. وكان كلاهما متزوجاً، فكان الأربعة يترددون على منزلنا باستمرار، وخاصة لعيادة الوالدة المريضة دوماً، أو للاجتماع بالوالد، أو للسلام على أشقائي عند مجيئهم من بيروت أو القدس. وقد روى لي الوالد أن طورنس أخذ في أشهر ما قبل سقوط طبريا واحتدام المعارك مع الصهيونيين يمانع في مداواة الجرحى العرب بينما كان زميله اليهودي الأصل لا يتردد في معالجتهم وتقديم كل وسائل الراحة لهم..

البصة

طبريا هي مسقط الرأس، وتأتي قرية البصة ثانية من حيث الانتماء والشعور بأنها جزء من المنبت الجغرافي. إذ هي مسقط رأس الوالدة والمكان الذي ترددت عليه في صغري أكثر من أية بلدة أخرى بينما لم أزر مسقط رأس الوالد في خَرَبا إطلاقاً. لذلك فأنا أعتبرها جزءاً أساسياً من تكوين الأسرة ونشأتها. والبصة في الذاكرة هي بصة الأربعينيات. أما ما قبل ذلك فإن زياراتنا كانت متقطعة بحيث لم تترك بصمات قوية في ذاكرتي وكنت في سن الطفولة المبكرة التي تسبق تكوين الذاكرة الباقية.

تقع البصة على مسافة ثلاثة كيلومترات عن البحر المتوسط، على الطرف الشرقي للطريق الدولي الساحلي من فلسطين إلى لبنان. وهي أبعد قرية ساحلية شمال فلسطين. ومنها يصل المرء إلى الناقورة، الفلسطينية ـ اللبنانية، حيث الحدود الدولية بين القطرين الجارين.

كانت البصة مصيفنا على مرحلتين الأولى وكنت طفلاً صغيراً، في النصف الأول من الثلاثينيات وفي أواسطها. وهي سنوات لا تسعفني الذاكرة بتفاصيلها. كنا نقيم أثناءها في منزل الوالدة، في إحدى الطبقات. أما المرحلة الثانية فكانت في ما بين حوالى 1943 و 1947، وكان البيت قد بيع. ولذلك كنا نستأجر أحد مباني المدرسة الكاثوليكية لأن الطلاب الداخليين يكونون آنذاك في عطلة الصيف. أما في أشهر صيف ما بين 1937 و 1944 فكنا نقصد أماكن أخرى في قريتي عين القبو ثم فاريا في لبنان أواخر الثلاثينيات، ثم في مدينة الناصرة في أوائل الأربعينيات. ولا أذكر أننا صرفنا فصل الصيف في طبريا منذ أن وعيت حتى الهجرة 1948.

انفردت البصة في شمال فلسطين بدرجة من الحرية الاجتماعية والسماح بالاختلاط، الأمر الذي جعلها هدفاً للأقاويل وللانتقاد والطعن والمبالغة في الإشاعات الناقدة والنكات الساخرة. ولا شك أن قرب البلدة إلى لبنان، ورخاء الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ووجود المدرسة الثانوية، ذلك كله فتح الباب أمام الشبان والشابات لإقامة صداقات لم يكن أهالي القرى المجاورة معتادين عليها. ولم يكن غريباً أن أشاهد شاباً وشابة يتمشيان في المساء قرب المبنى الذي نصطاف فيه بعيداً عن أعين الآباء والأمهات. وكان العشاق أحياناً يدخلون بستان المبنى ويفترشون أرضه متسترين بأغصان الأشجار.

المناسبة البريئة لإنشاء الصداقات أو لتقويتها بين الشبان والشابات الذين هم في سن الزواج كانت على سطوح المنازل في ما كان يسمى بسهرات الشعيرية والتين المجفف. كان بين تقاليد أهالي البصة أن تتنادى نساء الحي إلى دعوة بعضهن بعضاً في أماسي فصل الصيف إلى الاجتماع كل ليلة على سطح بيت لمساعدة ربة ذلك البيت على تموين أسرتها بما تحتاج له خلال السنة من الشعيرية والتين الجاف. وتأخذ العملية عدة ليال، قد تمتد إلى أسبوع. وفي الأسبوع التالي ينتقل الجميع إلى سطح منزل آخر. وكان اللقاء يضم حوالى عشرين امرأة، ومعظمهن أمهات. وكان يرافقهن بناتهن، خاصة ممن كن في سن الزواج ويبحثن عن العريس المناسب.

ولذلك كان يسمح للشبان العازبين بالانضمام إلى هذه السهرات العائلية البريئة وتمكين الجميع من التعارف وتمتين الصداقة. وكانت الأحاديث تمتد أحياناً إلى الشروط التي يقطعها كل طرف على الآخر، وإلى الدوطة وسائر المطاليب. وكانت الصفقات تجري بشيء من الصراحة والعلنية. ويقال في بصة الأربعينيات أن نصف الزيجات وضعت أساساتها أو أبرمت اتفاقاتها في تلك السهرات الصيفية وأثناء التعاون بعمل حبال الشعيرية وشرائح التين الجاف.

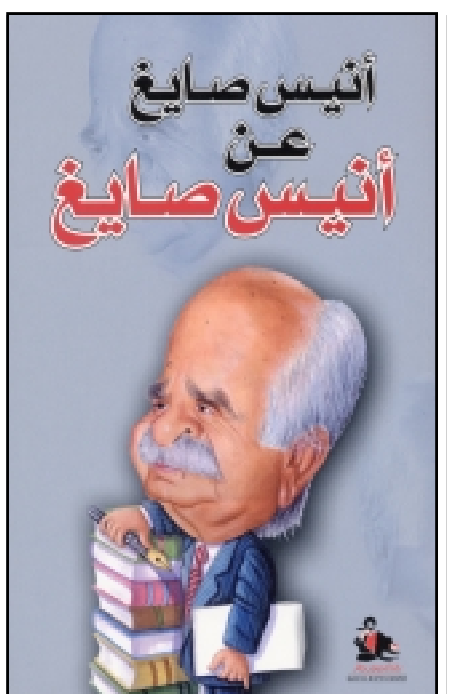

---

* سيصدر هذا الكتاب
عن دار رياض الريس في بيروت الشهر القادم